STARTER STORY · ARABIC · C2

مَرثِيَةُ الهَور

oqou

مَرثِيَةُ الهَور

كانَ الشّاعِرُ راضي يَعبُرُ بِأهلِ الهَورِ في مَشحوفِهِ الضَّيِّقِ مُنذُ خَمسينَ سَنة، يَدفَعُ الماءَ بِمِردِيٍّ طَويلٍ صَقَلَتهُ يَداهُ حَتّى صارَ جُزءاً مِن ذِراعَيه. كانَ لِكُلِّ راكِبٍ في مَشحوفِهِ نَصيبٌ مِن بَيتِ شِعرٍ لَم يُكتَبْ بَعد، يُلقيهِ راضي في مُنتَصَفِ العُبور، كَأنَّهُ أُجرةُ الرُّكوبِ الحَقيقِيّة، لا الدَّراهِمُ القَليلةُ الَّتي كانَتْ تُوضَعُ في كَفِّه.

لَكِنَّ الهَورَ الَّذي حَمَلَ مَشحوفَهُ نِصفَ قَرن، صارَ يَنسَحِبُ سَنةً بَعدَ سَنة، مُنذُ أُقيمَتِ السُّدودُ في أعالي النَّهرَين. تَراجَعَ الماءُ فَتَرَكَ وَراءَهُ طيناً مُتَشَقِّقاً حَيثُ كانَتِ القَواربُ تَعبُرُ بِسُهولة، وذَبُلَ القَصَبُ الَّذي كانَ يُغَطّي الأُفُقَ بِخُضرَتِه، وهاجَرَتِ الطُّيورُ الَّتي اعتادَتِ الأهلُ أن يَعُدّوا الفُصولَ بِمَواعيدِ رُجوعِها.

في العامَينِ الأخيرَين، لاحَظَ أهلُ الهَورِ أنَّ أبياتَ راضي تَغَيَّرَت. لَم تَعُدْ عَن العَروسِ الَّتي تَعبُرُ إلى بَيتِ زَوجِها، أو عَن الصَّيّادِ العائِدِ بِشِباكٍ مُثقَلة، بَل صارَتْ كُلُّها، مَهما بَدَأتْ، تَنتَهي عِندَ الماءِ المُنحَسِر. قالَ راضي لِمَن سَأَلَهُ: «أنا لا أُؤَلِّفُ هذِهِ الأبيات، الهَورُ يُملِيها عَلَيَّ، بَيتاً كُلَّ مَوسِمٍ يَجِفّ.»

وكانَ يُنشِدُ، وهُوَ يَدفَعُ المِردِيَّ في طينٍ صارَ أعمَقَ مِن ماء: «يا هَورُ، مِن كانَ يَحسِبُكَ بَحراً، صارَ اليَومَ يَعُدُّ خُطاهُ على ظَهرِك. وما كُنتَ يَوماً أرضاً لِتُمشى، وها نَحنُ نَمشي فَوقَ ذاكِرَتِك.»

في ذلِكَ الرَّبيع، عادَتْ نور، حَفيدَتُهُ، مِن البَصرةِ حَيثُ تَدرُسُ هَندَسةَ المِياه. جاءَتْ بِجِهازِ تَسجيلٍ صَغيرٍ وسَأَلَتْ جَدَّها أن يَعبُرَ بِها آخِرَ عُبورٍ إلى القَريةِ الغارِقةِ سابِقاً، قَبلَ أن يُغلِقَ الجَفافُ الطَّريقَ تَماماً. قالَتْ لَهُ: «أُريدُ أن أُسَجِّلَ مَرثِيَتَكَ كامِلةً يا جَدّي، قَبلَ أن يَنساها الهَورُ كَما تَنساها أنت.»

ضَحِكَ راضي وقالَ: «كَيفَ أُنهي مَرثِيةً لِمَن لَم يَمُتْ بَعد؟» ثُمَّ أضافَ، وهُوَ يَتَذَكَّرُ بِصَوتٍ غَيرِ مُتَأَكِّد: «سِتّونَ سَنةً وأنا أعبُرُ هذا الماء، أو خَمسون، لَم أعُدْ أُحصي بِدِقّة، فَقَد صارَتِ الأرقامُ تَنسَحِبُ مَعَ الماء.»

دَفَعَ راضي المَشحوفَ في قَناةٍ ضَيِّقةٍ بَينَ جُزُرٍ مِن الطّينِ اليابِس. ظَهَرَتْ، في مَكانٍ لَم يَرَهُ أَحَدٌ مُنذُ عُقود، أساساتُ بُيوتٍ مِن طينٍ وقَصَب، لِقَريةٍ غَمَرَها الماءُ يَومَ بُنِيَتِ السُّدودُ الأولى. قالَتْ نور مَذهولة: «كُنتُ أظُنُّها أُسطورة.» فَقالَ راضي: «كُلُّ ما غَرِقَ يَعودُ يَوماً لِيُذَكِّرَنا أنَّهُ لَم يَختَفِ، بَل كانَ يَنتَظِرُ فَقَط تَحتَ الماء.»

أنشَدَ راضي عِندَ تِلكَ الأساسات: «يا بُيوتاً غَرِقتِ ولَم تَمُتْ، عادَ الجَفافُ لِيَكشِفَ عَنكِ الأستار. ما أقسى أن يَكونَ الجَفافُ هُوَ مَن يُعيدُ لَنا مَوتانا، بَعدَ أن ظَنَنّاهُم في أمانِ الماء.»

سَأَلَتْهُ نور عَن أُمِّها، ابنَتِهِ الَّتي غادَرَتِ الهَورَ صَغيرة. تَنَهَّدَ راضي وقالَ: «أُمُّكِ وُلِدَت في السَّنةِ الَّتي جَفَّفوا فيها الهَورَ عَنوةً، أواخِرَ التِّسعينات. حَمَلتُ مَشحوفي على ظَهري يَومَها، لِأَنَّ الماءَ اختَفى بِأمرٍ لا بِإرادةِ السَّماء. عادَ الماءُ بَعدَ سَنَوات، لَكِنَّ أخي الَّذي رَفَضَ أن يُغادِرَ لَم يَعُدْ لِنَراه.»

قالَ في ذلِكَ اليَوم، وما زالَ يَحفَظُهُ عَن ظَهرِ قَلب: «جَفافانِ عَرَفتُهُما في عُمري، جَفافٌ صَنَعَتهُ يَدُ الإنسان، وجَفافٌ يَصنَعُهُ غِيابُ المَطَر. أهوَنُهُما، يا وَلَدي، ذاكَ الَّذي تَرحَمُهُ السَّماءُ يَوماً، فَأمّا الآخَرُ فَلا يَرحَمُهُ إلّا نِسيان.»

في مُنتَصَفِ الطَّريق، صارَ الماءُ أقَلَّ مِن أن يَحمِلَ المَشحوف، فَنَزَلَ راضي إلى الطّينِ يَجُرُّ القارِبَ بِحَبلٍ خَشِن، ونَزَلَتْ نور تُساعِدُه. تَوَقَّفا لِيَستَريحا فَوقَ رُقعةٍ يابِسةٍ كانَتْ، قَبلَ سَنَواتٍ قَليلة، أعمَقَ مِن قامَةِ رَجُل.

جَلَسَ راضي على حَزمةٍ مِن القَصَبِ اليابِس، ونَظَرَ إلى الأُفُقِ الشّاحِبِ طَويلاً قَبلَ أن يَقول: «أحياناً أظُنُّ يا نور أنَّ الهَورَ ماتَ مُنذُ زَمَنٍ بَعيد، وأنَّني، مُنذُ ذلِكَ الحين، أعبُرُ فَقَط ذاكِرَتَهُ بِمِردِيٍّ لا يَلمَسُ إلّا الهَواء.» لَم تَعرِفِ نور إن كانَ يَقصِدُ ذلِكَ حَقّاً، أو إن كانَ البَيتَ الأخيرَ في مَرثِيّةٍ لَم يَكتُبْها بَعد.

أنشَدَ، وصَوتُهُ يَختَلِطُ بِصَريرِ القَصَبِ اليابِس: «رُبَّما مِتَّ يا هَورُ قَبلَ أن أنتَبِه، ومِردِيّي، مُنذُ حين، يَدفَعُ الهَواءَ لا الماء. لَكِنَّ الَّذي يَحمِلُ مَرثِيَّةً حَيَّةً في صَدرِه، لا يَستَطيعُ أن يَقولَ إنَّ المَرثِيَّ قَد ماتَ تَماماً.»

عِندَ الغُروب، وَصَلا إلى بِرَكةٍ صَغيرةٍ ما زالَتْ صافِية، آخِرَ ما تَبَقّى مِن هَورٍ كانَ يَومَ اتَّسَعَ حَتّى الأُفُق. حَطَّتْ فَوقَها أسرابٌ قَليلةٌ مِن طُيورِ الماء، كَأنَّها جاءَتْ لِتُوَدِّعَ لا لِتُقيم. صَوَّرَتْ نور المَشهَدَ بِيَدٍ تَرتَجِف، وهِيَ تَعرِفُ أنَّها رُبَّما تُصَوِّرُ آخِرَ سِربٍ يَحُطُّ هُناك.

قالَ راضي فَجأة: «شَغِّلي جِهازَكِ يا نور، فَالمَرثِيَّةُ سَتَنتَهي اللَّيلة، هُنا، لا في مَكانٍ آخَر.» أشعَلَتْ نور الجِهاز، ووَقَفَ راضي في المَشحوفِ المُتَوَقِّفِ عِندَ حافّةِ البِركة، ورَفَعَ صَوتَهُ لِلمَرّةِ الأخيرة، يَجمَعُ في أبياتِهِ كُلَّ ما رَآهُ في خَمسينَ سَنة أو سِتّين، لَم يَعُدْ ذلِكَ يَهُمّ.

قالَ: «أيُّها الهَورُ، يا مَن كُنتَ سَماءً مَقلوبةً تَحتَ أقدامِنا، ويا مَن حَمَلتَ قَوارِبَنا كَما تَحمِلُ الأُمُّ أطفالَها فَوقَ الرُّكبَتَين: ذَهَبَ الماءُ ولَم يَذهَبِ الحَنين. جَفَّتِ القَصباتُ وبَقِيَ صَوتُ اهتِزازِها في آذانِنا. غَرِقَتِ البُيوتُ ثُمَّ عادَتْ لِتُخبِرَنا أنَّ الغَرَقَ لَيسَ نِهايةً دائِماً. وأنا، يا هَور، لَستُ مَن يَرثيك، أنا فَقَط مَن أعارَكَ صَوتَهُ، لِأنَّ الماءَ لا يَملِكُ حَنجَرة.»

حينَ انتَهى، جَلَسَ راضي في قاعِ المَشحوفِ المُستَقِرِّ فَوقَ الطّين، وكَأنَّ القاربَ نَفسَهُ قَرَّرَ أنَّهُ لَن يَتَحَرَّكَ بَعدَ الآن. احتَضَنَتهُ نور طَويلاً دونَ أن تَقولَ شَيئاً، والجِهازُ الصَّغيرُ ما زالَ يُسَجِّلُ صَمتَهُما.

سَأَلَتهُ نور بَعدَ حين: «وماذا يَحدُثُ لِلمَرثِيّةِ الآن، بَعدَ أن انتَهَت؟» فَكَّرَ راضي طَويلاً، ثُمَّ وَضَعَ المِردِيَّ في يَدِها، لا في الماء. قالَ: «تَعيشُ في حَنجَرةِ مَن يَحمِلُها بَعدي. أنا أعَرتُ صَوتي لِلهَور، وأنتِ الآن سَتُعيرينَ صَوتَكِ لِذاكِرَته.»

بَعدَ أسابيع، سَمِعَ أهلُ القَريةِ التَّسجيلَ كامِلاً، في أُمسِيةٍ أقامَتها نور على ضِفّةِ ما بَقِيَ مِن قَناة. لَم يَبكِ أحَدٌ بِصَوتٍ عالٍ، لَكِنَّ كَثيرينَ لَمَسوا التُّرابَ اليابِسَ تَحتَ أقدامِهِم وكَأنَّهُم يُصافِحونَ شَيئاً حَيّاً.

أمّا راضي، فَلَم يَعُدْ يَملِكُ هَوراً يَعبُرُهُ، لَكِنَّهُ ما زالَ، كُلَّ مَساء، يَجلِسُ قُربَ مَشحوفِهِ الجافِّ ويُعَلِّمُ نور بَيتاً جَديداً، كَأنَّ الهَورَ، وإن فَقَدَ ماءَهُ، لَم يَفقِدْ بَعدُ مَن يُصغي إلَيه.

OQOU STARTER LIBRARY

This story is from oqou's free starter library, graded at C2 for Arabic readers.

Read it interactively in the oqou app: tap any word for an instant translation, listen with natural narration, and carry your saved vocabulary into every story you read next.

oqou.app

Download oqou on the App Store

oqou